لاسرائيل، من خلال دفع الدول العربية الى اليأس، ان تقايض كمحطة أخيرة، أو في آخر اللحظات الدرامية بعد التخويف من احتمالات انفجار عسكري جديد وشامل، الاراضي السورية أو الاردنية أو اللبنانية المحتلة في مقابل اتفاقيات سلام شبيهة بالاتفاقية التي وقّعت مع مصر العام ١٩٧٩، وقبول هذه الدول العربية بصيغة الحكم الذاتي الفلسطيني كحل أخير ونهائي دون أي التزام بانسحاب اسرائيل من على الضفة الفلسطينية وقطاع غزة أو بقيام دولة فلسطينية مستقلة في المستقبل. وكان من المتصور جداً ان يضطر العرب لقبول مثل هذا الحل بسبب الخلل في ميزان القوى الحالي في معادلة الصراع العربي ـ الاسرائيلي وفي هيكل النظام الدولي لولا اندلاع واستمرار الانتفاضة الفلسطينية. وهنا يبرز الأثر الخطير والهائل للانتفاضة الفلسطينية على معادلة الصراع. ويمكن قياس هذا الأثر من زاويتين:

الاولى: ان الانتفاضة الفلسطينية تبطل فاعلية التفوّق العسكري الاسرائيلي، تماماً، وهو تفوّق لا يستطيع ان يمارس تأثيره الاّ في إطار مواجهات وحروب بين جيوش نظامية. فلا القنبلة النووية ولا طائرات «اف ـ ١٦» أو حتى الشبح ولا الأسلحة الكيمائية أو حتى الدبابات والمدافع الثقيلة قابلة للاستخدام ضد، أو قادرة على قمع، الانتفاضة؛ أي ان الانتفاضة تجرّد اسرائيل من أهمّ عناصر تفوقها، إنْ لم يكن أهمها على الاطلاق.

الثانية: استحالة قبول الدول العربية، في ظل استمرار الانتفاضة، لحل لا يفتح الطريق أمام اقامة دولة فلسطينية مستقلة. وفي تقديرنا، ان سوريا لن تقبل حلاً لا يوافق عليه الفلسطينيون حتى لو عرضت اسرائيل انسحاباً كاملاً من الجولان، ليس لأن سوريا لا ترغب في ذلك أو تريد ولكن لأنها تدرك ان مثل هذا الحل لن يحقق السلام وربما يكون بداية لحرب أهلية عربية ـ عربية واسعة النطاق، خصوصاً وان النظم العربية، جميعها، تتعرّض لتحديات داخلية من جانب تيار سياسي يرفض التفاوض، أصلاً، مع اسرائيل. فقد أثبتت السنوات الخمس الماضية ان الانتفاضة الفلسطينية تحظى بقوة دفع ذاتية تجعلها قابلة للاستمرار بل وربما للتطوير في اتجاه حركة تحرير مسلّحة. بمعنى آخر، فان استمرار الانتفاضة لا يتوقف، أساساً، على الدعم الذي تحصل عليه من الخارج، وانما يرتبط، أساساً، بوجود الاحتلال الاسرائيلي من عدمه. وقبول حل من جانب الدول العربية لا يرضاه الشعب الفلسطيني في الداخل سوف يجعل الامر يبدو وكأن هناك مؤامرة اسرائيلية ـ اميركية ـ عربية ضد الشعب الفلسطيني، في الوقت الذي سوف يؤدي استمرار الانتفاضة الى ممارسة المزيد من الضغوط على النظم العربية التي سوف يسهل دمغها بالعمالة في هذه الحالة. وفي هذا السياق، تبدو الانتفاضة الفلسطينية وكأنها قادرة، على الاقل، على الحيلولة دون تسوية لا تحقق الحد الادنى من المطالب الفلسطينية.

ولا نعتقد أننا نبالغ اذا قلنا ان الانتفاضة الفلسطينية هي أهمّ معطيات الصراع العربي ـ الاسرائيلي في المرحلة الراهنة على الاطلاق؛ فهي، بالاضافة الى ما سبق، تعيد ترتيب أوراق الصراع العربي ـ الاسرائيلي، وتجعل هذا الصراع يستعيد طبيعته الحقيقية أو يقف، مرة أخرى، على قدميه بعد ان كان مقلوباً على رأسه. وفي هذا السياق، لا تشكّل المفاوضات العربية الجارية، حالياً، عبئاً على الانتفاضة وانما تخدمها وتخدم النضال العربي ككل اذا أحسن استخدامها؛ اذ من شأن التفاوض ان يساعد على بلورة موقف عربي موحّد يمثّل الحد الادنى لما يمكن قبوله عربياً، وهو الوسيلة الوحيدة المتاحة، حالياً، لعزل اسرائيل واظهارها بمظهر الخارج على الشرعية الدولية. وهو، أيضاً، الوسيلة الوحيدة للحيلولة دون اعطاء الفرصة لاسرائيل لشنّ حرب جديدة تستطيع، من خلالها، اخلاء